مجلة
مركز الوثائق والدراسات الإنسانية
جامعة قطر

داخل العدد

* العطاء الجغرافي في مقدمة ابن خلدون .
* الحياة الاقتصادية في قطر من ظهور الإسلام حتي نهاية القرن الرابع الهجري.
* من السمات العامة للخلافة العباسية في العصر العباسي الأول.
* مليح بن الحكم : شاعر من هذيل .
* التحليل الاجتماعي للابداع ـ توجهات نظرية وخبرات بحثية في المجتمع العربي .
* النظام الدولي الجديد وموقع العرب منه .

العدد الثامن السنة الثامنة ١٩٩٦ م

الدوحة - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م

صلاح الدين الأيوبي
في القصص الرومانسية الفرنسية والانكليزية

د٠ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

مقدمة :

يعد البطل والحاكم صلاح الدين الأيوبي واحداً من أبرز الشخصيات الشرقية والإسلامية التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى ، بل لقد فاقت شهرته ماكان لكثير من ملوكها . وقد تأتى له ذلك بفعل تحريره للقدس الشريف من أيدي الصليبيين ، وتصديه ودحره لملوك أوربا في الحملة الصليبية الثالثة ، بجانب المثال الأخلاقي النادر الذي جسدته معاملته الكريمة والسمحة لأعدائه الصليبيين . ومن مظاهر هذه الشهرة في زمن صلاح الدين حرص كبار ملوك أوربا على إقامة العلاقات الديبلوماسية معه كفر دريك باربا روسا امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة والأمبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس[١] . بل إن ريتشارد الأول (الملقب بقلب الأسد) ملك انكلترا طلب ، وهو قائد أكبر جيش صليبي جاء (لاسترجاع) القدس ، بمجرد وصوله الساحل الشامي مقابلة هذا السلطان الذي عم ذكره الآفاق[٢] . ثم يأسره ذلك السلوك الحضاري الذي قابله به المسلمون فتنشأ بينه وبين الملك العادل أخي صلاح الدين صداقة وطيدة يتبادلان فيها الزيارات والهدايا . وعلاوة على ذلك كله يندفع ريتشارد لاقتراح مشروع في غاية الغرابة ، إذ لايجد في نفسه من حرج وهو قائد الجيش الصليبي أن يقترح على صلاح الدين تزويج أخته الأميرة (جوانا) من أخيه الملك العادل ، وأن يتولى الزوجان حكم أرض الشام بعد أن يتنازل لهما صلاح الدين وريتشارد عما بأيديهم من ممتلكات فيها[٣] .

وقد اضطلع الصليبيون - ممن وقفوا بمواجهة صلاح الدين في ساح القتال - أنفسهم بعملية إبراز الجوانب المشرقة في شخصيته وتقديمها للغرب كما هي إلى حد كبير . فقد روى أولئك الصليبيون - الذين أخرجوا من الشام بعد نجاح صلاح الدين في تحرير أغلب مدنه وقلاعه - الكثير الكثير عن سماحة صلاح الدين وكرمه الذي لا نظير له[٤] . وخاصة عقب تحريره القدس ، وقارنوها بجريمة الصليبيين الشنيعة عندما ذبحوا عشرات الآلاف من

سكان القدس المسلمين إبّان احتلالهم إياها عام ١٠٩٩م ، حتى تضرجت ركب خيولهم بدماء المسلمين[٥] .

وقد سجل لنا المؤرخ الصليبي (أرنول Ernoul) ماشاهده بنفسه من آيات السماحة والكرم والأخلاق الإسلامية الرفيعة متجلية في معاملة صلاح الدين للأسرى الصليبيين بعد تحرير القدس . حيث منح أهلها الأمان ، ولم يكتف بذلك بل أطلق الآلاف من الأسرى إكراماً لأخيه الملك العادل ولبطريرك القدس ولباليان ابلين القائد العسكري الصليبي . وزاد على ذلك بأن أطلق سراح كل شيخ وإمرأة عجوز[٦] . وقص لنا أرنول كذلك قصصاً رائعة عن عطف صلاح الدين ورأفته عندما رق قلبه لحال نسوة صليبيات خرجن يندبن ويبكين أزواجهن وأباءهن من أسرى وقتلى ، فأمر بإطلاق سراح من كان بالأسر من أقربائهن ، وعوّض الأرامل بمبالغ طائلة ، وأمّن للجميع الحماية كي يغادروا بسلام إلى أوربا[٧] .

ويأتي مؤرخ صليبي آخر ليسجل لنا دهشة أسقف مدينة سالزبوري أحد كبار رجال الدين الانكليز لكرم صلاح الدين وأخلاقه العالية أثناء لقائه به عقب إنتهاء الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م .

وتنقل لنا كتب التاريخ الصليبيّة تلك المحاورة التي دارت بين الرجلين ، وفيها يثني رجل الدين النصراني هذا على حكمة صلاح الدين وطيبته التي لا حد لها[٨] . وسرعان ماانتشرت هذه القصص في أوربا لتقف في مواجهة تلك الدعايات التي كانت تبثها الكنيسة لحشد البسطاء للإنخراط في الحملات الصليبية والتي تصور صلاح الدين سفاحاً يضطهد النصارى ويدمر الكنائس والصلبان ويقتل رجال الدين[٩] . وبالفعل التف الناس حول العائدين من الشرق ليسمعوا قصصاً أثارت دهشتهم واستغرابهم عن هذا (السلطان) الكريم العطوف الرحيم .

وقد أخذت تلك الصورة المضيئة طريقها إلى الأدبيات الأوربية ، وخاصة إلى الأدب الرومانسي الذي بدأ يزدهر في أوربا في تلك الأثناء[١٠] ، حيث أصبح لصلاح الدين منذ نهاية القرن الثاني عشر حيز لايستهان به في القصص الرومانسية الأوربية ، فطفقت تنسخ القصص والحكايات عن كرم وشجاعة وفروسية هذا السلطان المسلم[١١] . ومما هو

جدير بالملاحظة أن القصص الرومانسية التي انطلقت من أرض فرنسا قد احتفظت بالكثير من الملامح الحقيقية لشخصية صلاح الدين . فهي وإن حاكت عنه قصصاً خيالية لا صلة لها بالحقيقة ، إلا أن هذه القصص اتخذت للتدليل على مزاياه الخلقية العالية وعلو منزلته.

ومن أبرز الأعمال الأدبية المرتبطة بصلاح الدين في فرنسا العصور الوسطى القصص الرومانسية المعروفة بـ « حكايات منشد مدينة ريمس » أو Recits d'un menestrel de Reims . وهي مجموعة من الحكايات تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر ، كتبت بأسلوب شعري لكي يتم إنشادها من قبل المنشدين الجوالين أو المنسترال[١٢] ، وهذا النمط من الحكايات ازدهر في هذه المرحلة في جنوب فرنسا . وعرف المنشدون باسم التروبادور (Troubadors) وانتقل بعد ذلك إلى شمال فرنسا ليحمل منشدوه اسم التروفير (troveres) [١٣] . وحكايات منشد ريمس حكايات شعبية تناقلتها الألسن قرابة قرن من الزمن وهي حكايات واهنة الصلة بحقائق التاريخ ، وإن كانت تحمل بين ثناياها ملامح الأجواء والدوافع ذات الصفة التاريخية[١٤] .

ويصدق القول السابق أيما صدق فيما يتعلق بصلاح الدين الأيوبي ، فإذا كانت هذه الحكايات قد اختلقت له أدواراً لم يلعبها في حياته ، فإنها أيضاً قد عكست بصدق جوانب من الصورة المشرقة المعروفة عنه .

وأهم هذه القصص قصة الحب الذي وقع بين صلاح الدين واليانور دوقة اكويتين وزوجة لويس السابع ملك فرنسا ، وقصة مستشفى مدينة عكا ، وقصة كفن صلاح الدين .

تبدأ الحكاية الأولى بارتحال ملكة فرنسا برفقة زوجها للاشتراك في الحملة الصليبية الثانية بين عامي (١١٤٧م - ١١٤٩م)[١٥] وفي مدينة صور دب الملل في نفس الملكة الحسناء ، وبدا لها زوجها رجلاً تافهاً جباناً ولاسيما بعد هروبه من أمام السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبي ، ونكوصه عن دعوته لمنازلته شخصياً . وأخذت تتطلع إلى شخصية صلاح الدين التي جمعت بين الوسامة والسخاء والشجاعة ، فوجد الحب طريقه إلى قلبها . فما كان منها إلا أن بعثت لصلاح الدين رسالة بثته فيها حبها ، وعرضت عليه إن وافق

على الاقتران بها أن تتخلى عن دينها وتلتحق به . فبعث ذلك السرور في نفس صلاح الدين فقد كانت اليانور « أغنى وأجمل إمرأة في عصرها » وتم تبادل الرسائل بين الطرفين، وجرى الاتفاق ، في النهاية ، على تدبير خطة لتهريبها إلى صلاح الدين .

ومن عسقلان ، الميناء الشامي الوحيد المتبقى بأيدى المسلمين ، انطلق مركب سريع في عتمة الليل قاصداً صور . ونزل منه رجل تمكن عبر ممرات سرية من الوصول إلى غرفة نوم الملكة ، وأخذت اليانور مجوهراتها على عجل واتجهت إلى المركب . لكن لم يدر في خلدها أن تفشي إحدى الوصيفات سرها إلى الملك ، وفي اللحظة التي وضعت فيها أولى قدميها في المركب ظهر لويس وقبض عليها ، وقد وقفت المرأة الملكة بكل شمم في مواجهة زوجها الذي جحظت عيناه بالتساؤل ، وردت عليه بمنتهى الجرأة « إن صلاح الدين أفضل منك بكثير ، فأنت رجل جبان غير خليق حتى بتفاحة نتنة ، أما هو فقد سمعت عنه أشياء رائعة جعلتنى أقع بحبه »[١٦] .

وفي الحقيقة أن هذه المغامرة لجديرة بفارس أوربي من فرسان العصور الوسطى ، أما صلاح الدين فلا صلة له من قريب أو بعيد باليانور أو بزوجها . إذ لم يكن في تلك الأثناء (١١٤٧م - ١١٤٨م) سوى صبي في العاشرة من عمره . فكيف إذن حيكت هذه القصة وهل ثمة عناصر حقيقية فيها .

لقد سبقت الإشارة إلى أن بعض أجواء هذه القصص ودوافعها تتضمن عناصر حقيقية فقصة مقت الملكة اليانور لزوجها لويس واحتقارها إيّاه ليست من قبيل الخيال وكذلك قصة ارتباطها بعلاقة عاطفية أثناء وجودها في المشرق . ولكن الشخص الذي أحبته كان أ حد أقربائها ، ولم يكن سلطاناً أو مسلماً[١٧] .

أما عن شخصية صلاح الدين فيثير اهتمامنا أن نرى راوي الحكاية لايجد غضاضة في أن يسوق على لسان بطلته تفضيلها لصلاح الدين الحاكم المسلم على ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية ، وإطنابها في الحديث عن مميزاته الشخصية كالشجاعة والكرم والفروسية وهي من الصفات الحقيقية التي كانت لصلاح الدين فعلاً .

ولكن ، ماالذي جمع بين اليانور وصلاح الدين في قصة الحب هذه ؟ إننا نستطيع القول بأن اليانور كانت بفعل جمالها ونفوذها وعلاقاتها العاطفية المتعددة ، وبجانب

رعايتها للفنون وخاصة الأدب والشعر ، مصدراً لإلهام الشعراء سواء في فرنسا عندما كانت زوجة لويس السابع أو في انكلترا عندما طلقت من زوجها عام ١١٥١م وتزوجت هنري الثاني ملك انكلترا [١٨] . ومن جانب آخر لابد أن نتذكر بأن اليانور كانت وثيقة الصلة بالقصص الرومانسية فهي ابنة وليم يواتيه أحد أوائل شعراء التروبادور [١٩] . ولدينا العديد من هذه القصص التي أهداها الشعراء لاليانور [٢٠] . أما صلاح الدين فقد كان في ذلك الوقت (وقت تأليف الحكايات) رمزاً للشجاعة والسخاء والعظمة الشرقية [٢١] . فلا عجب إذن من أن ينتخب لحب هذه الملكة رجلٌ بعظمة صلاح الدين .

أما القصة الثانية فتفتقد كسابقتها الصلة بالواقع ، لكنها تعكس ، أيضاً ، صفات حقيقية لصلاح الدين ، وتتحدث هذه القصة عن مستشفى خيري بناه أحد كبار المحاربين الصليبيين في مدينة عكا . ويروي (المنشد) بأن أخبار هذا المستشفى الخيري قد ذاعت في الشرق وتناهت إلى مسامع صلاح الدين فأثار الأمر إعجابه وقرر أن يختبر بنفسه ماأشيع عن سخاء القائمين عليه وحرصهم على رعاية مرضاهم .

وتمضي الحكاية لتتحدث عن تنكر صلاح الدين بزي حاج نصراني ونزوله إلى المستشفى وهو منهك الصحة . ويبذل القائمون على المستشفى غاية جهدهم لعلاج هذا الحاج الشيخ ، لكنه أي (صلاح الدين) يمتنع عن تناول أي طعام لثلاثة أيام مما أدى إلى تدهور صحته . وذهبت كل المحاولات لاقناعه بالعدول عن صيامه سدى . وخشي رئيس الطائفة التي تدير المستشفى أن يؤدي ذلك إلى هلاكه فبذل أقصى جهده لإقناع صلاح الدين بتناول الطعام . وأخيراً وافق صلاح الدين أن ينهي صيامه إذا قدم له طبقاً من لحم حصان رئيس الطائفة الأثير وإلا فسوف يبقى صائماً حتى يفارق الحياة . وهدف صلاح الدين من ذلك ، بطبيعة الحال ، اختبار الدرجة التي يبلغها إحسان القائمين على المستشفى وتفانيهم في سبيل مرضاهم .

ومع أن الحصان كان بالغ القيمة إذ بلغ ثمنه ألف دينار ذهبي ، فإن رئيس الطائفة قد أوعز بذبحه ، فحياة إنسان تساوي عنده أكثر من ذلك بكثير . وعندما هم هؤلاء بذبح الحصان صاح صلاح الدين توقفوا الآن تحققت رغبتي . فتخلى عن صيامه واسترد صحته

وودع رجال المستشفى وعاد إلى مملكته دون أن يتعرفوا على حقيقته . وما أن وصل صلاح الدين دمشق حاضرة ملكه [٢٢] حتى أصدر مرسوماً أمر فيه أن يوقف ألف دينار ذهباً سنوياً من الأموال القادمة من مصر لدفع نفقات هذا المستشفى . ولأن صلاح الدين رجل صادق لم يعرف عنه الكذب فإن هذه الأموال استمرت تدفع للمستشفى كل عام حتى زمننا هذا (أي زمن المنشد) .

ونكرر ثانية قولنا بأن صلة هذه الحكاية بالحقيقة مفقودة ، لكن صاحب الحكاية قد اختار لصلاح الدين أن يكون معجباً بالمحسنين وأن يرد هو على إحسانهم بأفضل منه [٢٣] .

وتعزز القصة الثالثة العناصر الايجابية التي رسمها (المنشد) لشخصية صلاح الدين ففيها يقوم صلاح الدين بإرسال أحد خدمه ليطوف في كل مدن مملكته وهو يحمل في يده رمحاً علق في رأسه قطعة كتان طولها ثلاثة أذرع . ويقف الرجل في كل زاوية لينادي بأن صلاح الدين لم يستبق لنفسه من كل كنوزه وممالكه إلا قطعة القماش هذه لتكون كفناً له [٢٤] .

ومع اقتراب هذه الصورة التي قدمها المنشد من صورة صلاح الدين الحقيقية بزهده عن الدنيا وعزوفه عن جمع الأموال فإنها كذلك لاتستند إلى وقائع التاريخ . وتمضى قصص المنشد لتطنب في إبراز الجوانب المشرقة في شخصية صلاح الدين لتختتم بوصفه بأنه «أعظم أمير ظهر بين الكفار» [٢٥] .

وهناك ، بالإضافة إلى قصص منشد ريمس ، العشرات من الحكايات الفرنسية التي أبرزت الجوانب المشرقة في شخصية صلاح الدين ، كتلك التي تحدثت عن ترسيم صلاح الدين فارساً من قبل همفري صاحب حصن تورون أو هيو صاحب طبرية [٢٦] ، أو تلك التي يحاسب فيها صلاح الدين ماركيز قيصرية الصليبي لأنه يقوم بظلم رعاياه النصارى [٢٧] ، وقد انتشرت هذه القصص في فرنسا فعظم الإعجاب بشخص صلاح الدين وأبدى الفرنسيون أسفهم أن لايكون هذا السلطان العظيم نصرانياً ، فاقتضى أن اختلقت الأساطير التي تذكر بأنه كان ينتمي بالأصل إلى دين النصرانية ، لكنه تخلى عنها لإستيائه من تصرفات رجال الدين النصارى [٢٨] ، أو سواها التي تقول بأن صلاح الدين قد اعتنق النصرانية في اللحظات الأخيرة من حياته [٢٩] .

إلا أن هذه الصورة لم تجد لها ماينا ظرها لدى الانكليز ، فوحدهم دون كل خصوم صلاح الدين وقفوا منه موقفاً قاسياً ، وأبوا الاقرار بما شاهدوه بأنفسهم من أخلاق رفيعة لصلاح الدين . ولعل مبعث ذلك شعورهم العميق بالغيرة من هذا البطل الذي دحر أقوى ملوكهم ريتشارد قلب الأسد ، وأعاده خائباً إلى بلده ، يجر أذيال عجزه عن (استعادة) القدس من المسلمين ، لأجل ذلك رأى الانكليز في صلاح الدين عدواً خاصاً تقع عليهم وحدهم مهمة مناوأته . فضلاً عن ذلك فإن إفراط الانكليز في تمجيد بطلهم ريتشارد دفع بهم للحط من قيمة خصومه ، وفي مقدمتهم صلاح الدين الأيوبي[٣٠] .

ويتجلى هذا الموقف بأصدق صوره في القصة الرومانسية الشعرية الشهيرة ريتشارد قلب الأسد Richard Coer de Lion التي كتبها شاعر انكليزى مجهول في مقتبل القرن الرابع عشر . وتتألف هذه القصة الشعرية من سبعة آلاف بيت شعري . وهي نموذج للقصص الرومانسية الانكليزية المبكرة التي بدأت بالظهور منذ منتصف القرن الثالث عشر[٣١] . فهذه القصص استهدفت تمجيد الأبطال القوميين الإنكليز كالملك آرثر وريتشارد وسواهما ، وتميزت أيضاً بروح متعصبة بل شديدة التعصب في مواجهة خصومها . لإبراز عظمة هؤلاء الأبطال حفلت هذه الرومانسيات بالعجائب والمعجزات والخوارق التي يتعرض لها هؤلاء[٣٢] . وعلى قدر تعلق الأمر بالقصة الشعرية التي نعالجها نجدها تتميز بحس قومي وديني متطرف من أبرز مظاهره التمجيد المفرط لريتشارد والنيل بكل تعسف من خصومه ، وخاصة صلاح الدين[٣٣] . ويلجأ الشاعر لتحقيق هدفه هذا إلى تشويه الحقائق التاريخية من جانب وإختلاق العديد من الأساطير والحوادث التي لا سند لها من حقيقة .

ومن بين الحوادث التي يختلقها الشاعر قصة أكل ريتشارد للحوم أسراه المسلمين أثناء حصاره لعكا . ويبالغ الشاعر في التوقف أمام هذه الأسطورة ، كما يقدمها بصورة تنضح بالسخرية والاستهزاء بالمسلمين ، فهي تصور تهكم ريتشارد بسفراء صلاح الدين عندما يقدم لهم رؤوس أسراه كطعام . ولعل هدف الشاعر من إيراد هذه الأسطورة هو إبهاج سامعيه وإثارة نشوتهم بضعف هذا العدو الذي كان البطل ريتشارد يسخر منه[٣٤] . ومن المعروف أن هذه المسألة مختلفة برمتها .

ويختلق الشاعر أيضاً نزالاً وقع بين صلاح الدين وريتشارد ، ويتخذه كصورة نموذجية لتمجيد بطله والطعن بشدة في صلاح الدين . فهو يقدم في البداية على تشويه واقعة إهداء صلاح الدين أحد خيوله لريتشارد بعد أن نفق فرسه في إحدى المعارك فيجعلها خدعة من صلاح الدين لقتل ريتشارد . وفحوى القصة كالآتي : أراد صلاح الدين قتل ريتشارد فتآمر مع أحد المنجمين وجاء بمهر وأمه . ولجأ إلى ممارسة السحر ليجعل المهر يثنى ركبتيه كلما سمع صهيل الأم . وأهدى المهر لريتشارد ، وقرر أن يمتطى الأم ، وحتى إذا ما اتجه للقاء ريتشارد فإنه سيدفع الأم للصهيل فيسمع المهر ويثنى ركبتيه فيقع ريتشارد عنه ، وينقض عليه صلاح الدين فيقضي عليه . وكادت تنطلي الحيلة على ريتشارد لولا كونه - كبقية أبطال الملاحم - محط العناية الإلهية . إذ أسعفته السماء بأحد الملائكة الذي كشف له خدعة صلاح الدين وأرشده إلى وضع الشمع في أذني المهر كي لايسمع صهيل الأم ، وبذا تدحض خدعة صلاح الدين .

ولكي يذكي الشاعر حماسة مستمعيه يضفى ألواناً صارخة على صورة النزال ، فيصور صلاح الدين قادماً بخيلاء فهو واثق سلفاً من نتيجة النزال . لكن السحر سرعان ما ينقلب على الساحر ، فلا يجدي الصهيل المتواصل نفعاً في إستمالة المهر . ويتقدم ريتشارد كأنه الموت فيمتقع وجه صلاح الدين فزعاً . وهنا ينفث الشاعر جام حقده على صلاح الدين فيجعله موضع السخرية والاستهزاء حيث يسقطه عن فرسه في أول صدام له بريتشارد ، ويولى هارباً مذعوراً لايصدق أنه نجا بجلده[٣٥] . ولعل من نافل القول أن نؤكد بأن حادثة النزال مختلقة تماماً إذ تشير المصادر التاريخية العربية والصليبية أن صلاح الدين وريتشارد لم يلتقيا وجهاً لوجه أبداً سواء في ساحة القتال أو خلال المفاوضات لعقد الصلح[٣٦] . ومع حرص ريتشارد على مقابلة صلاح الدين فإن الأخير رفض ذلك وفوض أخاه للتفاوض نيابة عنه[٣٧] .

وإذا كانت حقائق التاريخ الدامغة قد منعت الشاعر من جعل صلاح الدين في عداد صرعى (فأس) ريتشارد ، فإنها لم تردعه عن اختلاق نزال جديد كان فيه أولاد صلاح الدين هذه المرة في مواجهة ريتشارد . وهنا يعوض الشاعر ما فات ريتشارد من فرار صلاح الدين ، بتصويره لمقتل ولديه ، إذ شطر ريتشارد الأول شطرين بضربة واحدة ، ثم سرعان ما ألحق به الثاني[٣٨] .

ونكرر من جديد القول بأنه ما من ذكر أو إشارة لنزال كهذا في المصادر العربية أو الصليبية الأولية ، لكن الشاعر قد تمتع بخيال خصب جمع به بعيداً عن الحقيقة التاريخية[٣٩] . وإن المتلقى الانكليزى لهذه القصة الشعرية لينتشي فرحاً وهو يسمع لبطولات مليكه ولا يعود ليسأل أصدق شاعره أم كذب .

وتتكشف كراهية الشاعر لصلاح الدين وللمسلمين وولاؤه الأعمى لبطله ريتشارد في تناوله لحادثة نكث ريتشارد لوعوده لحامية عكا وقتله الرهائن الذين كانوا بأيديه ، وهم نحو ثلاثة آلاف رجل . وهي حادثة شنيعة أثارت نقد واستياء كل من توقف عندها من مؤرخين مسلمين أو غربيين .

أما الشاعر فيقصها بكل رضا ومباركة . ولا يكتفى بذلك بل يضاعف الرقم أضعافاً مضاعفة فيجعله ستين ألفاً . وهو يرى أن ريتشارد قد نفذ إرادة الرب بعمله هذا . ويزيد على ذلك فيدعي بأن ريتشارد قد رد على دعوة صلاح الدين له بعبادة «أبو لو»[٤٠] . والإشارة إلى «أبولو» ترتبط باعتقاد ساد في أوربا أثناء العصور الوسطى فحواه أن المسلمين يعبدون أصناماً هي ماهومد وترافاجان وجوبتير وأبولو[٤١] .

ويأتي الشاعر أخيراً إلى النقطة الحاسمة في قصته الأسطورية والمتمثلة بفشل بطله في (إستعادة) القدس من صلاح الدين على الرغم من كل ما أسبغه عليه من بطولات . وتوقيعه الصلح مع صلاح الدين وعودته إلى انكلترا خاوي الوفاض . وهنا لابد للشاعر أن يلقي ذلك على كاهل السماء ، فيؤكد بأن ريتشارد قد صدع لأمر إلهي أمره بالعودة إلى انكلترا لإنقاذها مما تعانيه من شرور وآثام ، فلم يكن له من خيار سوى عقد الصلح والعودة سريعاً (امتثالاً لأمر السماء)[٤٢] .

وربما وجد الشاعر أن جمهوره لن يكتفوا بهذا القدر من المغامرات لبطلهم مع صلاح الدين فيحرق آخر ذرات بخوره لتمجيد بطله عندما يجعل ريتشارد يسأل صلاح الدين أن ينتخب خمسة وعشرين فارساً من أشجع فرسانه لمنازلة ريتشارد الذي سيقاتل بيد واحدة ، تاركاً مصير القدس يتحدد وفق هذا النزال . لكن صلاح الدين يرفض هذا العرض حتى ولو بلغ عدد الفرسان خمسمائة فارس لا خمسة وعشرين[٤٣] .

وخلاصة هذه القصة الشعرية إنكارها التام لصلاح الدين بصفته نداً لخصمه ريتشارد، إذ صور كرجل خبيث يفر من ساحة المعركة، ويلجأ إلى المكائد والسحر للانتصار على ريتشارد، ولكن دون جدوى، فالبطل الانكليزي كغيره من أبطال القصص الرومانسية تحفه العناية الالهية حيث تحرسه الملائكة ويحارب القديسون في صفوفه. وتغيب تماماً في هذه القصة الشعرية أية ملامح أو إشارات إلى شخصية صلاح الدين الحقيقية وإلى حقيقة العلاقة التي ربطته بريتشارد، هذه العلاقة التي كادت تنتهي بالمصاهرة[٤٤].

ومما تجدر ملاحظته أن الصورة التي قدمتها هذه القصة الشعرية عن صلاح الدين قد هيمنت بصورة طاغية على التصور الانكليزي لصلاح الدين لقرون عدة ولم تأخذ صورته جانباً من صفتها الواقعية حتى نهاية القرن الثامن عشر على أيدي إدوارد كيبون والسير والترسكوت[٤٥]. حيث أتاح نشر بعض المصادر العربية الرئيسية وخاصة كتاب « النوادر السلطانية » لابن شداد[٤٦] لهما أن يقتربا كثيراً من الصورة الحقيقية لشخصية صلاح الدين.

الهوامش

(١) للتفاصيل انظر :

Ch . M . Brand, " The Byzantines and Saladin " and , Speculum, 1962, Vol . xxxvll, pp . 167 - 180 .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ ، ٢٠٤ .

(٣) نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٤) A . S . Atiya, The Crusade, p . 80 .

(٥) صور عدد من المؤرخين الصليبين هذه المذبحة ، ويعد كتاب «أعمال الفرنجة» وثيقة تاريخية على ماقام به الصليبيون . انظر : المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة .

(٦) S . Lane - Poole , Saladin, p . 224 - 225 .

(٧) Ibid, p . 233 .

(٨) N . Daniel , The Arabs and Medieval Europe, p . 182 - 183 .

(٩) Ibid, p . 186 .

(١٠) عن تطور الأدب الرومانسي في فرنسا وانكلترا ، ينظر :

W . Barron English Medieval Romance (London : 1987) .

(١١) D . Mobnro, " The Western Attitude Toward Islam During the Period of the Crusades " , Speculum , Vol . Vi , 1931 , pp . 338 - 339 .

(١٢) U . T . Holmes , A History of old French Literature, p . 254 .

(١٣) Baroon, English Medieval , p 29 .

(١٤) Lane - Poole , Saladin , p . 380 .

(١٥) قاد الصليبيون جيوشهم عام ١١٤٧م إلى الشرق بقيادة كونراد امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا ، وذلك (لاستنفاذ) الرها التي كان قد حررها القائد المسلم عماد الدين زنكي . وعلى الرغم من الحشد الهائل لهذه القوات فإن الأطماع والمنافسات دبت في صفوف الصليبيين ، وعادت بهم إلى بلادهم خاوي الوفاض . للتفاصيل ينظر :
ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، م ٢ ، ص ٣٩٧ - ٤٦٣ .

(١٦) Lane - Poole , Saladin , pp . 380 - 382 .

(١٧) E . Hallam, The Cabetian France , p . 123 .

(١٨) Michael Swanton, English Literature Befor Chavcer , p . 18 .

(١٩) Ibid, p . 344 .

(٢٠) Barron, English Medieval Romance, p. 3.

(٢١) القرن الثالث عشر .

(٢٢) من المعروف أن عكا كانت في تلك الأثناء بأيدي الصليبيين ولم ينجح صلاح الدين في بسط سيطرته عليها إلا لثلاث سنوات فقط (٥٨٣هـ/١١٨٧م - ٥٨٦هـ/١١٩١م) .

(٢٣) Lane - Poole , Saladin , p . 384 - 385 .

(٢٤) Ibid, pp. 389 - 390.

(٢٥) Ibid, p. - 391.

(٢٦) للتفاصيل انظر رسالة الدكتوراه المهمة :

Paul Bancour, Les Mosulmans Dans Les Chanson de Gesta (D. Litt, Universite de Provance : 1982) .

(٢٧) Lane - Poole , Saladin , p . 385 .

(٢٨) N.Daniel, Islam and the West, p . 199.

(٢٩) Lane - Poole , Saladin , p . 387 - 883 .

(٣٠) D.AL - Jubouri, The Medieval - Idea of the Saracens as illustrated in English Literature (unpubished ph. D. Thesis University of Liecester, 1972) , p. 150 .

(٣١) K. Malone, Literary History of England, p. 179 .

(٣٢) Encyclopaedia Britannica, Art (Romance) , vol , pp. 1021 - 1022.

(٣٣) AL - Jubouri, The Idea, p. 163 .

(٣٤) Ibid . , p . 152 .

وقد وظف الروائي الشهير والترسكوت هذه الحادثة في روايته الطلسم .

(٣٥) AL - Jubouri, The Idea, pp. 155 - 157 : Lane - Poole , Saladin, p.389 - 390 .

(٣٦) انظر مثلاً ابن شداد ، النوادر .

(٣٧) AL - Jubouri, The Idea, p. 158 - 159 .

(٣٨) Malone , Lterary , p . 179 .

(٣٩) وافقت حامية عكا على الاستسلام للجيش الصليبي بعد حصار مرير دام أكثر من عام وفق شروط الحفاظ على سلامتها وإطلاق سراحها مقابل مبلغ من المال ، لكن ريتشارد نكث بهذه الشروط وقتل رجال الحامية . لمناقشة هذه الحادثة بين دراسات المؤرخين العرب والأوربيين ، انظر: ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الانكليزية والأمريكية ، (أطروحة ماجستير غير منشورة : جامعة الموصل ،١٩٩٢م)، ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

(٤٠) AL - Jubouri, The Idea, p. 154.

(٤١) Daniel , Islam and the West , p. 319 .

(٤٢) AL - Jubouri, p. 160 .

(٤٣) Ibid., p . 161 .

(٤٤) AL - Jubouri, p. 146.

(٤٥) ملا جاسم ، صلاح الدين ، ص ص - ق .

(٤٦) نشرة المستشرق الهولندي شولتنس في ليدن عام ١٧٥٣م .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية والمعربة :

١ - ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ، الدار العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤م) .

٢ - رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩م) .

٣ - ملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق ، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الانكليزية والأمريكية (أطروحة ماجستير / كلية الآداب / جامعة الموصل : ١٩٩٢م) . .

٤ - المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٥٨م) .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

1 - Atiya, A . S ., The Crusade : Commerce and Cultrure (Bloomington, Indiana University Press : 1962).

2 - Bancour, Paul, Les Mosulmans Dans Les Chanson de Gesta (D. Litt., Universite de Provence : 1982) .

وقد تفضل الدكتور مؤيد عباس بإعارتي هذه الأطروحة القيمة .

3 - Barron, W. English Medieval Romance (London, Longman : 1987) .

4 - Brand, Ch. "The Byzantines and Saladin " Speculum, Vol XXX Vil, 1962) .

5 - Daniel . N. The Arabs and Medieval Europe (London, Longman : 1979) .

6 - ---------- , Islam and the west (Edinburgh, : 1959)

7 - Encyclopaedia Britannica, Art " Romance " .

8 - Hallam, E., The Cabetion France (London, Longman : 1980) .

9 - Holmes, U., A. History of old French Literature (Newyork, ; 1937) .

10 - AL - Jubouri, Diya, The Medieval Idea of the Sarac - ens as illstrated in English Literaturd (Un Pubished ph. D thesis, Uneversity of Leicester : 1972), p. 150 .

11 - Lane - Poole, S., Saladin and the Fall of the King - dom of Jerusalem (London, Heros of Nations : 1898) .

12 - Ma Lone, K. Literary History of England (London : 1967) .

13 - Monro, D., " The Western Attitude Toward Islam During the Period of the Crusades " , Speculum Vol Vll, 1931 .

14 - Swanton, M., English Literature Before Chaucer (London, Longman : 1987) .

صدر عن

مركز الوثائق والدراسات الانسانية

ندوة

قضايا التغير في المجتمع القطري

خلال القرن العشرين

" الدوحة : ١٩ – ٢٢/ ٧ /١٤٠٩هـ

– ٢٥ – ٢٨/ ٢ /١٩٨٩ م "

الجزء الثاني

الدوحة ١٤١٢هـ – ١٩٩١م

السعر :

٢٠ ريال قطري للجزء الواحد

جامعة قطر

الدوحة – قطر